الوحدة 04: مراحل تطور التصوف ببلاد الغرب الاسلامي

1- مكانة المتصوفة لدى السلطة والعامة:

سعت السلطة بالغرب الاسلامي إلى تقريب العلماء والفقهاء إليها، واحتوائهم في منظومة هياكلها السياسية والإدارية من خلال عرض المناصب عليهم، ومنحهم الهدايا والأعطيات، وتحفيزهم على تقديم الخدمات الخيرية للمجتمع والتكفل بها ماديا، ومع ذلك لم يكن هذا الصنيع كافيا لنسج علاقة متينة بين السلطة والمتصوفة، بسبب الظروف السياسية أو الاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها البلاد؛ إذ هناك شريحة عريضة من المتصوفة ممن ابتعد عن السلطة وانعزل عنها حين وقف على الشطط الضريبي على سبيل المثال الذي شاب سياسة الدول للتحصيل الجبائي، وانخرط بعض شيوخ الصوفية في صفوف المعارضة الفكرية والسياسية في ظرفيات معينة، وكانت لهم مواقف متشددة من السلطة ورؤى حادة منها تحت طائل أسباب قادت إلى ذلك وعومل ساعدت على ذلك الموقف المتشدد المعارض.

كما كان للعوامل الفكرية والدينية هي الأخرى دخل في توتر العلاقة بين السلطة والمتصوفة في ظل مظاهر الخلاف الفكري والديني وتباين الرؤى بين الفقهاء والمتصوفة في الكثير من القضايا الشرعية، حتى وصلت حدّة الخلاف في البعض من الأحيان إلى حدّ حدوث أزمة بين الفقهاء والمتصوفة والقطيعة، بسبب معارضة الفقهاء لأفكار المتصوفة والعمل على ابطالها والنهي عن اتباع المتصوفة والسير على دربهم، كان كل طرف في البعض من الأحيان يسعى للاستعانة بالسلطة على خصمه. وكانت السلطة في بعض المواقف تقف إلى جانب فئة على حساب أخرى، وكانت في الغالب تساند شريحة الفقهاء على المتصوفة. إذ بلغ الأمر في ظرفيات معينة حين استعان الفقهاء بالسلطة على المتصوفة المتطرفين في أفكارهم إلى تعرّض البعض من المتصوفة إلى عمليات سجن أقدمت عليها السلطة نصرة للفقهاء وتأييدا لمواقفهم الشرعية تجاه الفكر والسلوك الصوفي المتشدد والمخالف في البعض من مواده للرؤية الشرعية القويمة حتى أنّ منهم من وقع في شيء من الزندقة كما تم الأمر بحرق الكتب التي كانت تتضمّن أفكارا مخالفة للعقيدة الاسلامية الصحيحة والتصور الشرعي السليم. ونشير في هذا الصدد كذلك إلى أنّ الفقهاء وقفوا إلى جانب السلطة على المتصوفة في البعض من الأحيان بسبب الخلاف العقدي والرؤية التعبدية والسلوكية التي أنكرها الفقهاء بسبب مخالفتها للهدي النبوي والنص الشرعي.

في العهد المرابطي احتدم الصراع الفكري-الديني في الأندلس بين الصوفية والفقهاء، من جهة، وعارض الفقهاء والمتصوفة كذلك السلطة، ومن ذلك انّ المتصوفة كانوا وراء ثورة قامت بغرب الأندلس،

ومن مناطقها: شنترين، شلب، بطليوس؛ وذلك أنّه في تلك المنطقة وأمام الهجمات المتكررة من طرف القشتاليين على البلاد الاسلامية، سعت السلطة إلى تحصين المنطقة والإكثار من الضرائب على أهل المنطقة، فتسبب ذلك في تذمر الرعية بها ولاذوا بالمتصوفة واستنجدوا بهم، وبذلك تطرف سكان المنطقة وانضووا تحت لواء المتصوفة بزعامة الصوفي أحمد بن الحسين المعروف بابن قسي، والذي حرّض على الفتنة ودعا إلى الثورة. كما ادعى الامامة لإضفاء الصبغة الدينية على دعوته وجمع الكثير من الأتباع حوله بعد سنة 539هـ/1144م، فبايعه الأعيان، حيث استولى على بعض الحصون والمناطق وهناك، وذلك على عهد المرابطين كحصن ميرتلة. كما اتصل بالموحدين، فأمدوه بالعساكر، ثم تحالف مع ملك البرتغال. لكن هذا التحالف أضعف هيبته هند أهل الأندلس، حيث ثاروا ضدّه واغتالوه سنة 540هـ/ 1145م.

أمّا في العهد الحمادي، فقد سلك قادة الدولة سياسة منفتحة طبعت الحياة الثقافية والفكرية بالحرية، مما سمح بحدوث تعايش إلى حد ما بين النخب العلمية والدينية على الرغم من التباين الفكري فيما بينها. وهو ما تنطق به حركة العلماء الفاعلة في الانتقال بين الحواضر المغرب أوسطية وباقي حواضر بلاد الغرب الاسلامي زمنئذ. بل وكانت القلعة ملجأ للمنفيين من حواضر أخرى وبجاية موطن استقرار كذلك لهم لما اشتدت بهم النوائب، سواء من المغرب والأندلس، فأبو الفضل النحوي قصد قلعة بني حماد سنة 507هـ/1113م فرارا من متابعة المرابطين وفقهائهم، ونزل ببجاية أبو بكر محمد بن الحسين الميورقي أحد أعمدة الاتجاه الباطني بعد محنة مقتل شيخه ابن العريف سنة 535هـ1141م على يد المرابطين، كما استقر ببجاية أبو محمد عبد الحق الاشبيلي (ت581هـ/ 1185م).

أما في بداية عهد الدولة الموحدية، اتبع ابن تومرت (ت524هـ/1130م) سياسة احتوائية لفئة المتصوفة، للحد من خطرهم على دعوته، وكان من المدافعين عن فكر الغزالي الفلسفي خاصة بعد حادثة حرق كتابه إحياء علوم الدين، وذلك لكسب التأييد الشعبي خاصة حين أدرك مكانة الفكر الغزالي في أوساط شريحة من العامة والنخبة الصوفية، أما فترة عبد المؤمن بن علي (ت558هـ/1163م) الذي تلقى تعاليم التصوف الأول على يد الصوفي أبي محمد عبد السلام التونسي قبل لقائه بالمهدي بن تومرت في رباط ملالة سنة 512هـ/ 1118م، فقد كان زاهدا متصوفا، يقرب إليه المتصوفة وتخصص لهم رواتب ضمن الشرائح الاجتماعية، وتقطع لهم الأراضي ليسترزقوا منها، حيث حرّر عبد المؤمن بن علي ظهيرا منح بموجبه في بجاية أرضا زراعية للصوفي أبي النجم هلال بن يونس الغبريني.

كما أنّ الخليفة يعقوب المنصور الموحدي (580-595هـ/ 1184-1198م) كان نسخة من أبيه يوسف في الزهد والتقشف والتصوف، يكاتب صوفية المغرب والأندلس ويقربهم إليه، بل ويستدعيهم إلى

عاصمته مراكش. ومن كبار المتصوفة الذين جمعتهم علاقة طيبة به، نجد أبا العباس القنجائري، من شيوخ محمد صالح الماجري، وكانت له علاقة برجال التصوف كأبي مدين شعيب وأبي النصر أيوب الفهري شيخ الطائفة الصوفية بالمغرب. وترجع المصادر اتصال المنصور به إلى ندرومة على مقتل أخيه وقد دلته مريدته على الشيخ أبي مدين لكنه توفي في تلمسان فأوصى بأن يتصل بأبي العباس، وأصبحت له عند المنصور مكانة.

في الفترة الممتدة بين القرنين السادس والعاشر الهجريين/12-13م، نهجت السلط الحاكمة زمنئذ لبلاد الغرب الاسلامي هي الأخرى سياسة الاحتواء للمتصوفة، والشدّة في أحيان أخرى إذا تطلب الأمر ذلك. فقد عمل رجال السلطة على تقريب المتصوفة إليهم، والاستعانة بهم، لكشف المستقبل واستشعاره، والاستفادة من بركتهم، من أجل حسن الاستعداد له. ومن ذلك أنّ سلاطين بني زيان كانوا يتقربون من الصوفية، ويكرمونهم، ويحتفون بهم ويقدرونهم، ليس خوفا أو استثمار لنشاطهم في سبيل خدمة الدولة، وإنما تبركا وتقديسا للأولياء واعتقادا في ولايتهم وكراماتهم.

والأمر ذاته عند الحفصيين والمرينيين وحكام الأندلس من المسلمين، فقد كان سلاطين بني حفص بالمغرب الأدنى يطلبون بركتهم ويعتقدون فيهم الولاية، وهو ما نقف عليه في سلوك السلطان الحفصي أبي زكريا الذي لما دخل تلمسان واستولى عليها لم يجرؤ على مداهمة دار أبي عبد الله محمد بن مرزوق، اعتقادا فيه. بالإضافة إلى أنّ السلطة الحفصية قرّبت إليها الأسرة القنفذية، حتى لعبت الأخيرة دورا ملحوظا في بلاط بني حفص في الخطابة والفتوى والقضاء، بل إنها سيطرت على خطة القضاء طيلة العهد الحفصي. كما أنّ عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلي، الذي جاء من الأندلس واستوطن بجاية، تولى خطة القضاء والخطابة لبني غانية.

أمّا من مظاهر التصادم التي وقفنا عليها في هذا العهد (الزياني والحفصي والمريني) فهي محدودة، ومن ذلك أنّه حين أعلن بعض مرابطو الزاب الثورة على حكم بني مزني المواليين للحكم الحفصي بين سنتي 703هـ/1304م و740هـ/1340م، وانطلقوا من فكرة تضييع السلطان للسنة. وبالتالي أعادوا رفع شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

2- التيارات الصّوفية السائدة في الغرب الإسلامي

التصوف الذي نشأ في بداياته كان سنيا متقيدا بالقرآن والسنة النبوية، وأساسه التعبد والزهد، ومثل هذا التوجه أبو الفضل النحوي التوزري نزيل القلعة، ثم أبو مدين الغوث وأبو زكرياء الزواوي وغيرهم على العهد الموحدي، وفيه تم الاعتماد على مصنفات المشارقة منها: قوت القلوب لابن طالب المكي، والرسالة القشيرية

للقشيري، وكتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد. لقد شكلت المرحلة الممتدة ما بين ق 4هـ/10م و 6هـ/12م فترة حاسمة عرفت خلالها المجالات الغربية تفسخ فكر التصوف والولاية، وشكلت مجموعات صوفية كانت لا تزال في مرحلة التأسيس. رويدا، ستتهيأ الأرضية لبروز مجموعة من الطرق والمدارس الصوفية بفضل انتشار المؤسسات الدينية الروحانية (الرباط/الزاوية)، ليستقر جهاز صوفي تكونت له تنظيماته الخاصة، ورجاله، وأفكاره المؤسسة لمدارسه وطرقه، في المقابل، انتشرت جملة من الافكار الفلسفية التي انتشرت بداية بالأندلس من خلال –عبد الله بن مسرة الأندلسي (ت.319هـ/931م)، والذي تأثر به الكثير من المريدين والتلاميذ، حتى ألصقت بهم تهمة الزندقة، وتصادم خلالها هؤلاء البنات الأوائل للتصوف مع السلطة ومنهم: أحمد بن محمد ابن العريف الصنهاجي الأندلسي (ت.536هـ/1141م)، عبد السلام اللخمي ابن برجان الإشبيلي (530هـ/1136م)، هذا الأخير الذي تنصل مما نسب إليه حتى هلك في ظروف غامضة بعد محاكمته ونفيه؛ أما ابن العريف فقد تم نفيه هو الآخر قبل قاضي ألمرية ابن أسودة على عهد علي بن يوسف.

لقد كان ميلاد التصوف بين تأثيرات فلسفة المشرق بالرغم من محدوديتها بالمجالات الغربية، وقد تكلف بنشرها أبو الحسن الحرالي (ت.638/1241)، وكان فلسفي التصوف، وزعم انه يستخرج من علم الحروف وقت خروج الدجال ووقت طلوع الشمس من مغربها، وهذه علوم وتحديدات ما علمتها رسل الله، كما هو شأن مدرسة ابن سبعين، وابن عربي، وتلتهما مدرسة بن العريف وابن عباد النفزي، وكل هذه الافكار الفلسفية الميتافيزيقية تشكلت منذ سالف الذكر ابن مسرة الاندلسي.

وكان ممن تأثر ببلاد المغرب بأفكارهم الفلسفية نذكر بن حرزهم، وابن غالب القرشي الاندلسي، وعبد الجليل القصري، وأبو الصبر السبتي، وقد ساد نقاش بين المشارقة ومتصوفة المغرب والاندلس، بحيث رأى متصوفة المشرق أن متصوفة المغرب والاندلس هم أهل حقيقة لا طريقة، وهم أهل طريقة لا حقيقة، وقد حاول ابن عربي الدفاع الرد على ادعاء المشارقة من خلال ما ورد في " مقدمة رسالة روح القدس".

وتبلور خلال المرحلة المتقدمة من تاريخ العصر الوسيط فكر جديد للتصوف برز في الرموز والاشارات تصدى لهذه المدرسة الحقيقية بافريقية ربيع بن سليمان القطان، من خلال خطبه ورسائله، وكانت له حلقات جمع فيها بين الرقائق والاحوال والمقامات، ثم اتسعت افكار التصوف للتجاوز مدرسة الرقائق الى تصوف المقامات والاحوال وفيها اصبح الفكر الصوفي اعمق بعدا وتعبيرا.

ومن اتجاهات التصوف المعتدل بالغرب الاسلامي:

- تيار الوعظ والتذكير.
- تيار الترغيب والترهيب.
- تيار المجاهدة النفسية.

- تيار الخلوة والانقطاع.

ونقل أبو القاسم فيلالي (رحمه الله) عن ابن قنفد في كتابه "أنس الفقير" عددا من المدارس والفرق التي نشأت ببلاد المغرب والتي وصفها بمنبت الصالحين، وتعددت بتعدد المشايخ كان لجلهم مؤسسات روحانية تعليمية (زوايا وأربطة) كما ذكرنا سلفا، وجمعها في الطوائف الآتية:

-الشعيبيون: وهم طائفة أبي شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي بأزمور.

-الصنهاجديون: من طائفة بني أمغار من بلد تيط.

-الماجريون (الحجاج): من طائفة أبي محمد صالح الماجري تلميذ الغوث أبي مدين شعيب.

-الحاحيون: ورثها ابو عمران عن جده زكرياء يحي بن ابي عمرو بن يحي الحاحي في آخر القرن 7هـ/13م.

-الغماتيون: طائفة الشيخ ابي زيد الهزميري(ت.706هـ/1306م).

كما ذكر أبو القاسم فيلالي فرقا أخرى ضمهم القرنين 6و7هـ/102-13م منهم السنيين، والاتحاديين (الاتحاد والحلول)، ومنهم الرقائقيين، ومن مختلف النزعات، نذكر منهم:

-ملامتية المغرب: وهم طائفة ابن حرزهم (ت.559هـ/1163م) الذي تنسب اليه ملامتية المغرب، وقد كان فقيها وحافظا للفقه، زاهدا سالكا التصوف على فكر الملامتية، كما اشتهر به سيدي عزوز ساقط التكليف ملامتيا، وكذا ابو العباس السبتي (ت601هـ/1204م) وهذا الاخير اختلف في امره لدى اهل مراكش، هل هو: ملامتي؟/ قطبا؟/كافر؟/ساحر؟

-مذهب ابو العباس السبتي: أساس مذهب ابو العباس التخلي عن فائض المال للمحتاجين، ورد سائر اصول الشرع الى الصدقة كأن يفسر تكبيرة الاحرام في الصلاة حين يرفع المصلي يديه يفسرها أن لا يظن على الله شيء، فان كان هناك ظن دنيوي في شيء فلم يكبر المصلي ولم يحرم، وغيرها مما ربطه بالأصول.

-مذهب الشوذي الاندلسي: أو الطائفة الشوذية لقاضي اشبيليا ابو عبد الله الشوذي الحلوي، والذي عرف عليه لبسه لزي المجانين، كما اعتد من اكبر الصائمين نهارا والقائمين ليلا، وقد شهد فيه محمد بن دهان الاوسي الشهير بابن امرأة (ت.610هـ/1213) وعده من الصالحين..

-مذهب عفيف التلمساني: سليمان بن علي بن علي الكومي عفيف الدين الصوفي التلمساني الاصل، عرف بانه شاعر واديب متصوف على مبدأ وحدة الوجود لابن سبعين، كما كان على طريقة ابن عربي، وذكر في المصادر انه نزل دمشق وبها توفي ودفن بمقابر الصوفية سنة 690هـ/1291م.

ويمكن أن نضيف على ما ذكرنا من مذاهب وطوائف ومدارس نسبة لشيوخ التصوف، بعضا آخر من تيارات ومدارس التصوف ببلاد المغرب والاندلس، ومنها:

-اليعزاوية.

- الغزالية.
- الشاذلية.
- المريدية.
- العريفية.
- البرجانية.
- العربية.

3- علاقة المتصوفة بفقهاء العصر:

جمعنا جملة من أعلام التصوف ببلاد الأندلس والمغرب الاسلامي، حتى يتعرف الطالب على بعض هاته الأسماء التي سطعت في نشر وتعليم وترسيخ أفكار التصوف، ونذكر منهم:

-عبد الله بن مسرة الأندلسي (ت.319هـ/931م).

-ربيع بن سليمان القطان القرشي النوفلي القيرواني (ت.334هـ/945م).

-أبو الفضل النحوي التوزري ثم القلعي (ت.513هـ/1119م).

-أحمد بن محمد ابن العريف الصنهاجي الأندلسي (ت.536هـ/1141م).

-عبد السلام اللخمي ابن برجان الإشبيلي (530هـ/1136م).

-محي الدين ابن عربي الأندلسي (ت.537هـ/1242م).

-أبو بكر محمد بن الحسين الميورقي الباطني (ت.537هـ/1143م).

-أبو الحسن علي بن عبد الله ابن حرزهم (ت.559هـ/1163م).

-ابو شعيب بن سعيد الصنهاجي (ت. 561هـ/1165م).

-أبو يعزى يلنور المغربي (ت.572هـ/1176م).

-حسن بن علي بن محمد المسيلي الملقب بـ "أبي حامد الصغير"(ت.580هـ/1185م).

-أبو محمد عبد الحق الاشبيلي (ت.581هـ/1185م).

-أبو عبد الله العربي البجائي (ت. بعد 591هـ/1194م).

-أبو مدين شعيب (ت. 594هـ/1197م).

-أبو العباس الخزرمي السبتي (ت.601هـ/1204م).

-أبو زكريا يحي الزواوي الحسن (ت.611هـ/1215م).

-محمد اللخمي التلمساني الشهير ابن الحجام (ت.614هـ/1217م).

-أبو محمد صالح الماجري (ت.631هـ/1234م).
-علي بن ابراهيم الحرالي التجيبي (ت.638هـ/1241م).
-أبو الحسن الشاذلي (ت.656هـ/1258م).
-عفيف الدين سليمان الكومي التلمساني ثم الدمشقي (ت.690هـ/1291م).
-عبد الكريم طيب الأزدي البجائي "ابن يبكي" (ت. ق7هـ/13م).
-أبو عبد الله الشوذي الحلوي الاشبيلي (ت. ق7هـ/13م).
-أبو تميم الواعظ الوهراني (ت. ق 7هـ/13م).
-أبو زيد الهزميري (ت.706هـ/1306م).
-محمد بن عمر الهواري (ت.843هـ/1439م).

في العهد المرابطي احتدم الصراع الفكري-الديني في الأندلس بين الصوفية والفقهاء، من جهة، وعارض الفقهاء والمتصوفة كذلك السلطة، ومن ذلك انّ المتصوفة كانوا وراء ثورة قامت بغرب الأندلس، ومن مناطقها: شنترين، شلب، بطليوس؛ وذلك أنّه في تلك المنطقة وأمام الهجمات المتكررة من طرف القشتاليين على البلاد الاسلامية، سعت السلطة إلى تحصين المنطقة والإكثار من الضرائب على أهل المنطقة، فتسبب ذلك في تذمر الرعية بها ولاذوا بالمتصوفة واستنجدوا بهم، وبذلك تطرف سكان المنطقة وانضووا تحت لواء المتصوفة بزعامة الصوفي أحمد بن الحسين المعروف بابن قسي، والذي حرّض على الفتنة ودعا إلى الثورة. كما ادعى الامامة لإضفاء الصبغة الدينية على دعوته وجمع الكثير من الأتباع حوله بعد سنة 539هـ/1144م، فبايعه الأعيان، حيث استولى على بعض الحصون والمناطق وهناك، وذلك على عهد المرابطين كحصن ميرتلة. كما اتصل بالموحدين، فأمدوه بالعساكر، ثم تحالف مع ملك البرتغال. لكن هذا التحالف أضعف هيبته هند أهل الأندلس، حيث ثاروا ضدّه واغتالوه سنة 540هـ/ 1145م.

أمّا في العهد الحمادي، فقد سلك قادة الدولة سياسة منفتحة طبعت الحياة الثقافية والفكرية بالحرية، مما سمح بحدوث تعايش إلى حد ما بين النخب العلمية والدينية على الرغم من التباين الفكري فيما بينها. وهو ما تنطق به حركة العلماء الفاعلة في الانتقال بين الحواضر المغرب أوسطية وباقي حواضر بلاد الغرب الاسلامي زمنئذ. بل وكانت القلعة ملجأ للمنفيين من حواضر أخرى وبجاية موطن استقرار كذلك لهم لما اشتدت بهم النوائب، سواء من المغرب والأندلس، فأبو الفضل النحوي قصد قلعة بني حماد سنة 507هـ/1113م فرارا من متابعة المرابطين وفقهائهم، ونزل ببجاية أبو بكر محمد بن الحسين الميورقي أحد

أعمدة الاتجاه الباطني بعد محنة مقتل شيخه ابن العريف سنة 535هـ1141م على يد المرابطين، كما استقر ببجاية أبو محمد عبد الحق الاشبيلي (ت581هـ/ 1185م).